الخطاب الثقافي والأدبي عند العرب
نهوض... أم ركود...؟

د/مريم حمزة
الجامعة اللبنانية

تمهيد:

هل نهض العرب؟ سؤال مطروح هذه الأيام في ساحتنا النقدية.. سؤال يجعلني أحسب الزمن توقّف ما يقارب المائة عام، بل أحسب أن عجلة التاريخ تعود بي إلى الوراء، إلى الربع الأول من القرن العشرين، عندما طرحت مجلة "الهلال" المصرية، السؤال نفسه على ثلّة من الأدباء العرب والمستشرقين.

تُرى ألم يتغير واقع العرب منذ ذلك التاريخ؟ أم تُراها دورة الزمن وتشابُهُ الظروف والأحوال؟!

دلالة المصطلح:

تساؤلات، أجدني معنية بتقديم إجابات عنها، تبدِّد الهواجس والشكوك، وتشكّل أرضيّة لهذا البحث، أستهلّها بالتوقف عند أمرين:

- أولهما: فوضى المصطلح، مصطلح "النهضة".
- ثانيهما: دلالة هذا المصطلح.

أما بشأن الأمر الأول، فإننا ننظر بشيء من الاستغراب إلى هذه الفوضى في المصطلحات الواردة في كثير من الدراسات التي تتناول عصر النهضة، والتي ترد على أنها مترادفات لمعنى واحدة، هو "النهضة". فتارة يُطلق عليه "عصر الانبعاث"، وتارة "عصر الإحياء"، وتارة "عصر النهضة"، وتارة "العصر الكلاسيكي"، وتارة "العصر الاتِّباعي"...! وفي أحسن الأحوال، فإن بعض هذه الدراسات تقسِّم تلك الحقبة إلى مراحل متتالية، مطلقةً على كلٍّ منها واحداً من تلك المصطلحات التي كادت تشكل حقلاً معجمياً لما بات يُعرف "بعصر النهضة".

فإذا عدنا إلى كتب المعاجم والموسوعات، وجدنا لكلّ من هذه المصطلحات، معنى مختصاً به، وتصنيفاً يختلف فيه عن الآخر:

فـ**"الانبعاث"**: يعني بعث الميت وقيامته، ومنه "يوم البعث"، أي يوم القيامة.

و"**الإحياء**": ليس بعيداً من "الانبعاث"، وهو من الفعل أحيا، وأحيا الأرض: أخصبها... وأحيا النار: أشعلها ونفخ فيها حتى تحيا.

أما **الكلاسيكية**: فهي كلمة غربية من أصل لاتيني (classicisme)، وهي مذهب أدبي يدعو إلى احتذاء القديم[1].

وقل الشيء نفسه تقريباً عن الاتِّباعية التي تعني المحاكاة والتقليد. وهي في مجموعها مصطلحات لا يمكننا التعامل معها، على أنها مترادفات بالمعنى الدقيق.

أما الأمر الثاني فهو، دلالة كلمة "النهضة". ولقد سبقنا كثيرون إلى التساؤل عن معنى هذا المصطلح، نذكر منهم، على سبيل المثال، لا الحصر، محمد لطفي جمعة الذي أعطى جملة من الدلالات لهذه الكلمة، حين قال: "...فهل يقصدون ما يقصد عادة بكلمة (رنيسنس) أي حركة إحياء العلوم والآداب والفنون مثل التي ظهرت في القرن الرابع عشر وما بعده في إيطاليا وامتدت إلى أوربا؟ أم نهضة بمعنى حركة فكرية ضد المعتقدات والعادات والأنظمة الاجتماعية القديمة، أم يقصدون بالنهضة، الثورة السياسية؟ أظن أن كلمة نهضة تشمل كل هذه المعاني والمقاصد"[2].

أما لسان العرب لابن منظور، فقد أعطى التفسير التالي: "النهوض هو البَراح من الموضع والقيام عنه، نهض ينهض نهْضاً ونهوضاً، وانتهض أي قام... وناهضتُهُ أي قاومتُهُ... والنهضة: الطاقة والقوة... والناهض: الفرخ الذي استقلَّ للنهوض... وهو الذي نشر جناحيه ليطير... وناهِضةُ الرجل قومُهُ الذين ينهض بهم... ومكان ناهِض: مرتفع"[3].

نفهم من هذا التعريف، كما هو واضح، أن النهضة تعني الاستواء، ثم القيام من الموضع ومبارحته، وتعني الترفّع وامتلاك الطاقة والقوة الذاتية اللتين تمكّنان من مقاومة الهيمنة والتبعية، حيث يؤدي ذلك إلى شعور بالاستقلالية، وبالقدرة على التحليق في الأجواء الرحبة، مع التمسّك بالأهل والأسلاف الذين يشكلون أرضية صلبة وسنداً متيناً لكل ناهِض أو على طريق النهوض.

تعريفات تضعنا، في هذا المقام، أمام جملة من التساؤلات:

- هل استوى العرب بعد طول قعود؟ وهل بارحوا مواضعهم التي كانوا سجناء فيها؟
- هل امتلكوا من الطاقة والقوة ما مكّنهم من مقاومة الخضوع للتالد، والتبعية للوافد؟

- هل توصّلوا إلى التمتع بالحرية والاستقلالية، وإلى القدرة على التحليق في الأجواء الفكرية الرحبة؟

- هل تمسّكوا بما تركه لهم الأسلاف، على أنه السند والمعين؟ أم تنكّروا لإرثهم وقلبوا له ظهر المجنّ؟

النهضة في مفهوم المفكرين:

أسئلة ليست جديدة كل الجدّة، فقد طرحها، كما أشرنا، المهتمون بهذا الشأن، منذ بدايات القرن العشرين، في مجلة "الهلال" التي أجرت استفتاء حول هذا الموضوع بين أدباء ومفكرين ينتمون إلى مذاهب ومشارب مختلفة، فكان طبيعيا أن تأتي الإجابات مختلفة ومتباينة؛ ففي حين يرى فريق منهم أن العرب لم ينهضوا، لأنهم لم يتمكّنوا من التغلّب على شعورهم بالدونية تجاه الآخرين، وعلى شعورهم بالخوف والعجز والقصور، ولم يمتلكوا القدرة على التحرر والاستقلالية والإبداع، ورفض كل أشكال التبعية والتقليد، يرى فريق آخر أن العرب قطعوا شوطاً كبيراً على طريق النهضة، لما حققوه من إنجازات علمية وصناعية وحضارية، ناهيك عما حققوه في الميادين الفكرية والأدبية.

من الفريق الأول نذكر ميخائيل نعيمة الذي يعلّق على هذا الموضوع بشيء من السخرية الممزوجة بالمرارة والألم، فيقول: "لقد كثرت "نهضاتنا" في هذه الأيام، وتعدّدت "حركاتنا"، حتى لا تسمع إلا بالناهضين... وكثيراً ما سألت نفسي عمّاذا عسانا نعني بقولنا "نهضة". أنقصد أننا كنا غافلين فاستفقنا، أم مستلقين على ظهورنا فانتصبنا، أم سائرين في مؤخرة موكب الحياة فأصبحنا في منتصفه أو مقدمته؟... إذا كان لما تعوّدنا أن ندعوه... "تقدّماً" من معنى، فمعناه يجب أن يُقاس بالسعادة الناتجة عنه، ولا مقياس للسعادة... إلا التغلّب على الخوف.. خوف الموت.. والجوع والألم والفاقة والعبودية.."[4].

ولا يبتعد مصطفى صادق الرافعي كثيراً مما يقوله نعيمة حين لا يجيز لنفسه الإقرار بهذه التسمية "نهضة" إلا من باب المجاز والتوسع "لأن أسباب النهضة... لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذي يفصل بيننا وبين سلفنا"[5].

أما جبران خليل جبران فإنه يذهب بعيداً في هذا الأمر، إذ أنه ينكر تلك النهضة المزعومة والتي ليست سوى صدىً ضئيل لمدنية الغرب، منتقداً إياها بلهجة غاضبة حيناً، وبأسلوب تهكمي ساخر أحياناً أخرى، مشبِّهاً إياها "بالإسفنجة التي تمتصّ الماء من خارجها وتنتفخ قليلاً، لكنها لا تتحوّل إلى ينبوع ماء حي"[6].

أما الفريق الآخر، فيرى أن العرب نهضوا، أو بدأوا ينهضون من سباتهم العميق الذي استمرّ قروناً، عُرفت "بعصور الانحطاط"[7]، وأن الفضل في هذا النهوض، يعود للغرب الذي قرعت مدافعه أرض مصر، ومذذاك أخذت هذه النهضة، حسب رأيهم، بالنموّ حين توطّدت وشائج الاتصال بين الشرق والغرب.

من أصحاب هذا الرأي، سلامة موسى الذي يذهب بعيداً في هذا المجال، حين ينفي وجود حضارة عربية أو مدنية عربية، ناعياً على العرب اعتقادهم بامتلاك مدنية خاصة بهم، بل بوجود مدنية غير المدنية الأوروبية، مشترطاً للنهوض "أن ننزع نحو أوربا ونفتح أبوابنا على مصراعيها للحضارة الأوربية..." [8].

وفي الاتجاه عينه، يذهب طه حسين الذي يرى أن الشرق بدأ يستيقظ من نومه وينهض بعد انحطاطه ويتحرك بعد هذا السكون الطويل... ثم يذهب أبعد من ذلك حين يدعو إلى محاكاة أوروبا في جميع مناحي الحياة حتى "تغمر الحضارة الغربية مصر والشام وحتى يصبح هذان البلدان جزأين من أجزاء أوروبا"[9].

من أصحاب هذا الرأي أيضاً، أنيس المقدسي الذي يؤكد المقولة نفسها من أن بلادنا كانت تغطّ في سبات عميق، وتغرق في ظلام جهل دامس، وأنها لم تنهض إلا بعد توافد البعثات والإرساليات الأجنبية علينا، حيث يقول: "من المعلوم أن العهد الذي عرفه روّاد نهضتنا الحديثة هو عهد يقظة من سبات عميق طويل إلى حياة جديدة بدأت أنوارها تشع على الشرق منذ أوائل القرن التاسع عشر"[10]. ومن الملاحظ أن المقدسي، ككثيرين غيره من الباحثين، يعمّم الانحطاط على جميع البلدان العربية، مخصِّصاً سوريا ولبنان بالريادة في الخروج من النفق المظلم، حيث يرى أنهما "منشأ أكثر الروّاد في ذلك العهد، وإن يكن بعضهم قد نشأ في القطر المصري... [منوّهاً بمصر التي راحت تكوّن لنفسها] "شخصية سياسية مستقلة"[11].

وإذا كان المثقف العربي المستنير يرى هذا الرأي، فلا عجب إذاً، أن نرى مستشرقاً، وهو "مستهل" يسخر من العرب الذين يتمسكون بأصالتهم، وبالتالي فهم لا يعملون على السير في طريق النهوض[12].

بين هذين الفريقين، يقف ثالث، ناظراً إلى المسألة بعينين اثنتين: فهو يفاخر بالتراث التالد، من دون تباهٍ أو مغالاة، كمن يحترم الدخيل الوافد، من دون انبهار أو استلاب.

ولعلّه من باب الموضوعية، يتوجّب علينا أن نبدأ بمستشرق، إيطالي، وهو "جويدي" (Guidi) الذي يرى أن العرب قد نهضوا فعلاً، وأن نهضتهم "وطيدة الأساس، ثابتة الأركان" بفضل تلك الجذور التي تتصل بروح الشعب وتعبّر عن مشاعره[13].

يوافقه هذا الرأي الأديب المصري محمد لطفي جمعة الذي يرى أن النهضة الفكرية، قامت على أكتاف رجال "قلائل... يرفعون بأيديهم مصباح الحقيقة... ولكنهم لا يقدرون على حمل المصباح بدون تعضيد من مجموع الأمة"[14].

أما معروف الرصافي، فيعيدنا مرة أخرى إلى السعادة التي ينشدها ميخائيل نعيمة... سعادة، من أية جهة أتت، من شرقنا العربي، أم من الآخر الغربي، وإن كل ما اقتضاه تحقيق هذه السعادة، "من اقتباس عناصر المدنية الغربية... لا يجوز... أن يُحدَّ بحدّ.. فإن كانت آداب العربي ومشاربه... من ضروريات سعادته.. وقف عندها، وإلا وجبَ عليه تركُها إلى ما هو أرقى منها وأنفع..."[15].

الواقع الحالي:

والآن! وفي ضوء هذه الآراء، حقّ لنا أن نسأل: هل تغيّر شيء في قضية النهضة، منذ مائة عام وحتى اليوم...؟! هل نهض العرب حقاً..؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه، مستدلين بملامح وتجليّات من واقعهم السياسي والاجتماعي والأدبي.

أما على المستوى السياسي فإن ما قيل في القرن السابق لا يزال صالحاً حتى الآن: نبدأ برأي لمستشرق أميركي، هو "وليم أوريل" (William Oreal) الذي يرى بأن العرب ليسوا مؤهلين لصنع نهضة بلادهم، لأن مشكلتهم مشكلة ولاء وانتماء، فولاؤهم "ولاء أسري، قبلي، ديني" كما يقول، وليس ولاء للوطن؛ حيث إنهم يفتقرون إلى تلك "الروح العامة" التي هي الوطنية[16].

وكذلك مصطفى صادق الرافعي الذي يرى أن القضية قضية عزّة وإرادة، حيث يقول: إن النهضة في بلدٍ ما، بحاجة إلى مقوّمات، إذ لا يمكن أن تكون هناك نهضة ثابتة لأية أمة، إلا إذا تمتّع شعبها "بإرادة قوية وخلق عزيز واستهانة بالحياة"... فأنى تكون هناك نهضة والشرق العربي قد بلغ مبلغاً من إغضائه على الذل وقراره على الضيم، وجهله أو تجاهله أن الغرب ربط أقطاره كلها في بضعة أساطيل[17].

أجل! يبدو أن الأمور لا تزال، تسير من سيء إلى أسوأ؛ فإذا كان بعض العرب قد نعموا بشيء من السيادة والاستقلال، إبّان ما عُرف بعصر النهضة، لدى تحرّرهم من قبضة الاحتلال

العثماني، فإنهم، وللأسف قد وقعوا في قضبة محتلٍّ آخر، فرنسي تارة، وإنكليزي تارة أخرى، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار. وها هي الاحتلالات تتوالى عليهم من جديد؛ فمن احتلال إسرائيلي صهيوني إلى آخر إنكليزي أو أميركي... وجوه متعددة، وذرائع شتى؛ فحملات وأساطيل بحجة تخليصنا من حكم عثماني أو مملوكي ظالم وبغيض، كما حصل في مصر... وبعثات وإرساليات بوجه تبشيري تثقيفي تنويري، كما حصل في مصر ولبنان... وسيل من الصهاينة الغُزاة، يحتلون الأرض ويجوسون الديار... يقتلون ويشرّدون ويغتصبون، كما حصل في فلسطين... وآخرها أميركيون جُدُد.. وجنود.. وأساطيل... تجتاح أرض العرب بحجة ضرب الدكتاتورية وتحقيق الأمن والعدالة للشعوب، كما حصل في العراق... وصهاينة طغاة... ومدافع وغارات... لم تبقِ ولم تذر... بحجة تحقيق الأمن والدفاع عن النفس، كما حصل في لبنان... وأراني مسوقةً في هذا المقام، للعودة قرناً من الزمان، لأستعير تعبيراً للرافعي، حيث يقول بأن طريقة هؤلاء جميعهم، هي "طريقة ادّعاء الثعلب للدجاج أنه قد حجّ وتاب وجاء ليصلّي بها"[18]... والحبل على الجرّار... بل هي أحابيل ومكائد لم تُنتج إلا حروباً وفتناً، ولم تُحدث إلا خراباً ودماراً، ولم تسبّب إلا تقسيماً وتشرذماً في عالمنا العربي...!

فهل هذه هي النهضة يا تُرى..؟! اللهمَّ إلا إذا تسنّمنا ملامح نهضة مقبلة في حركات ثورية ومقاومة، انبعثت في الماضي عبر ثورة أحمد عرابي وسعد زغلول ومصطفى كامل في مصر، وبعدها عبر ثورة المليون شهيد في الجزائر، ثم ثورة الحجارة في فلسطين، وأخيراً عبر حركات المقاومة في كل من غزة ولبنان، في وجه المحتلين المتغطرسين... انتفاضات وسط جو من الخنوع والسكون، يصدق فيها حديث للرسول ﷺ حيث تنبأ بالحال التي انتهى إليها عالمنا العربي اليوم، إذ يقول: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها". قال قائل: أمن قلّة نحن يومئذٍ؟ قال "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن". قال قائل: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: "محبّة الدنيا وكراهية الموت"[19].

أما على المستوى الثقافي الاجتماعي، فحال العرب ليست بأفضل، كما نظن ونعتقد، وإن بدت في ظاهرها غير ذلك؛ فهناك تطور اجتماعي حضاري، كما يرى سلامة موسى وكثيرون من مفكري جيله، وهناك نبذ للعادات البالية، كما يقول أنيس المقدسي ومن يرى رأيه، وهناك تحضّر ما بعده تحضّر، كما يصف طه حسين ومن نحا نحوه، ممّن درسوا في الغرب وتشرَّبوا حضارته وتثقفوا بثقافته، حتى إنهم سعوا لأن تكون حضارة مصر والشام جزءاً من الحضارة الأوروبية، كما أسلفنا.

قد يكون هؤلاء محقّين في ما يصدرون عنه من مواقف وآراء، بسبب ما شهدوه من إنجازات تحققت في عصرهم، بفضل الانفتاح على الغرب، إنجازات لا يمكن لأحد تجاهلها أو نكرانها، ومنها ظهور المطابع التي عمَّمت الثقافة بين الناس، وجعلت الكتاب في متناول الجميع. ومنها إنشاء الصحف التي أنارت الأذهان، وأوصلت العلم إلى كل بيت، ومنها افتتاح المدارس التي رعت النشء وعلَّمت الأجيال... فضلاً عن تأسيس المعاهد والمكتبات والجامعات... وعن إيفاد البعثات إلى الخارج للتخصص بشتى أنواع العلوم... إلى ما هنالك من إنجازات لم يشهد العرب مثيلاً لها منذ أفول نجمهم الذي كان يسطع في العصور الإسلامية الزاهرة... إنجازات حصلت في بلاد، يكاد يجمع المؤرخون آنذاك على تفشي الجهل فيها وعلى انتشار الأمية في كل بقعة من بقاعها، بحيث إن المستشرق الهولندي "فولني" (Volney)، مثلاً، الذي زار مصر في القرن الثامن عشر، أذهله ما تتردّى فيه البلاد من جهل وأمِّيَّة، فقال مصوِّراً هذا الواقع: "إن الجهل عام في بلاد العرب، وهو يتناول كل الطبقات. ويتجلى في كل العوامل الأدبية والطبيعية..." وهذا أيضاً ما يقوله في بلاد الشام: "إن الجهل سائد في سوريا كما في مصر..."[20]. وفي السياق نفسه تقريباً، يقول مارون عبّود: "إن الشعب كان أميّاً، والعالِم في ذلك الزمن، إما كاهن وإما شيخ دين"[21].

من المؤكد إذاً، أن تقدماً ملموساً شهدته الساحة العربية، على أكثر من صعيد، وخصوصاً في مصر ولبنان. لكن هل هذه هي النهضة التي نسعى إليها وننشدها..؟ وهل ترتكز النهضة على هذا فقط..؟ وهل النهضة في أن تكون عندنا مدرسة فيصبح عندنا مدارس كما يقول ميخائيل نعيمة..؟ أو أن تكون عندنا سيارة، فيصبح عندنا طيارة... أو أن تكون عندنا محطة تلفاز أرضية، فيصبح عندنا محطات فضائية، تنفعنا قيراطاً وتفسدنا قنطاراً..؟ هل النهضة في أن نمتلك مدافع وأساطيل تشنّ الغارات والحروب وتفتك بالعوالم والشعوب..؟ هل هذه هي النهضة التي يريدها لنا الآخرون، أمثال المستشرق... "مستهل" الذي يسخر من العرب الذين يتمسكون بأصالتهم، وينظرون إلى الدخيل الآتي من الخارج بشيء من التحفّظ والريبة، فيقول: "فكما أنك تضحك من هذا الرجل الذي يأبى أن يأكل مما يتيسّر له من الخبز المعدِّ له... تضحك أيضاً ممن يعدل عن اقتباس معدات الحضارة العصرية، استهجاناً لها، أو تمسكاً بما كان بيد السلف الصالح من الوسائل.."[22].

فهل هذه هي النهضة، أم هي مدنية الآلات التي لا تنتج سوى الأزمات، ولا تعمل إلا على نهب الخيرات..؟! حتى على مستوى تلك الآلات والتقنيات، نحن لم ننهض؛ ذلك أن الطائرة التي تقلنا هي من صناعة غربية، والباخرة التي تبحر بنا صنعتها أيدٍ غربية... حتى السيارة التي تجوب بنا

أرجاء بلدنا، والتي نتباهى باقتناء الفخم منها، هي ليست من صنع أيدينا... ناهيك عن التلفاز والحاسوب والهاتف والإنترنت، وسواها الكثير... الكثير مما نتسابق في شرائه واستخدامه، خادعين أنفسنا بإطلاق تسميات عليها، عربية أو معرّبة، ولكن الحقيقة واحدة، وهي أن هذه جميعها لم تولد من رحم أمتنا، ولم تكن ثمرة من ثمار أدمغتنا، وأننا شعب مستهلك لا منتج، ومهما كبرت البئر واتسعت، فإنه لا يمكنها أن تكون نبعاً لا يجفُّ ولا ينضب!

والأمر هذا لا يقتصر على الآلات والتقنيات، إنما يتعدّاها إلى العلوم بشتى فروعها وأنواعها، الطبيعية منها والرياضية والطبية والهندسية وسواها من علوم نستوردها من الخارج ونقدمها لطلبتنا، بلغة غير لغتهم، من فرنسية وإنكليزية، تحت حجج وذرائع لا تكشف عن جوهر المسألة وخفاياها، وهذا ما هو سارٍ، وللأسف، في معظم الأقطار العربية، ومنها بلدي لبنان الذي يتلقى أبناؤه فيه جميع أنواع العلوم والرياضيات، بل والكثير من العلوم الإنسانية بلغة أجنبية... ناهيك عن المناهج التي تعتمدها وزارات التعليم المتعاقبة في المدارس والمعاهد والجامعات التي كثر عددها في هذه الأيام، والتي هي، في معظمها، نسخة طبق الأصل عن المناهج المعتمدة في بلاد الغرب، حتى أصبحنا نكِلُ أمورنا لسوانا، ونترك له تدبّر شؤوننا، بل والتخطيط لنا والتفكير بدلاً منا... فهل نستطيع، أن نعدّ ذلك الذي لم تصنعه أيدينا، ولم تخطط له أدمغتنا... نهضة؟! وهل يمكن لنهضة مزيفة كهذه، أن تحمل في ذاتها بذور الدوام والاستمرار...؟!

سنعود قرناً إلى الوراء، ونترك لـ"وليم أوريل" (William Oreal) المستشرق الأميركي أن يجيب عن بعض هذه التساؤلات، حيث يقول بأن العرب ليسوا مؤهلين لصنع نهضة في بلادهم وأن "ما يمكن لحضارة ما أن تستعيره من حضارة أخرى دون تعديل أو تحوير قليل جداً، وأن العالم ليخسر شيئاً كثيراً إذا صار العرب مسخاً أوروبياً أو أميركياً"[23] وهذا ثمن باهظ يدفعه العرب. إنه برأي نعيمة "عزة النفس والاستعطاء" فيما "الغرب أحوج إلى مدرسة الشرق من الشرق إلى مدرسة الغرب"[24].

أجل! يمكننا وبكل ثقة واطمئنان، أن نؤكد اليوم على ما قاله جبران خليل جبران بالأمس، وهو أن العرب لم ينهضوا، و"جلّ ما فعلوه في هذا السبيل إبداء آرائهم، وأكثرها عقيم. أما أعمالهم الخاصة ومآتيهم الذاتية... فتخالف مزاعمهم... فهم إن أكلوا، فبصحون غربية، وإن لبسوا، فالأثواب غربية... وإن ماتوا كُفِّنوا بقماش منسوج في معامل غربية..."[25]. لذا نراه يخاطب العرب متأسفاً: "ألا تعلمون أن الغربيين يسخرون بكم عندما... تطلبون إليهم أن يبدلوا المواد الخام التي تثمرها أرضكم بالإبرة التي تخيطون بها أثواب أطفالكم، والمسمار الذي تدقّونه في نعوش أمواتكم؟"[26].

فإذا قال قائل، وما المانع في أن نفيد من منجزات الغرب، طالما هي مباحة لنا...! نقول إن المشكلة لا تكمن في الإفادة من هذه المنجزات، ولا في الإفادة من عناصر المدنية الغربية، إنما المشكلة تكمن في كيفية الإفادة منها، وفي القدرة على هضم ما نأخذه من تلك المنجزات، وعلى تحويله إلى ملكة فينا، نحسن التحكُّم بها كما نشاء. والتاريخ يشهد بأن الغرب حين أخذ الكثير من علومنا وآدابنا، استطاع أن يهضمها ويطوّرها ويطبعها بطابعه حتى أصبحت خاصة به، فيما نحن نبتلع ما يُطبَخ لنا دون هضم، مما يحوّلنا عن ملامحنا، لا، إلى ملامحهم، بل إلى شبه أشباح! فلِمَ لا نتمثّل بأسلافنا الذين أخذوا في عصورهم الزاهية، الكثير من علوم غيرهم، لكنهم هضموها وصبغوها بصبغتهم وأدخلوها في مدنيّتهم...؟[27]

لِمَ لا يعود العرب اليوم إلى ما عندهم من الملكات والقدرات... لِمَ لا يقفون متهيبين أمام كنوزهم القديمة... فتكون نهضتهم صلبة وراسخة..؟! أو لعلّنا نسينا أو تناسينا أننا ورثة الحضارة العربية التي كانت معيناً ثريًّا ينهل منه الآخرون... أو أننا تخلّينا عما كان ملك يميننا في عصور خلتْ، فاستسهلنا الجاهز الذي يصنعه سوانا حتى بتنا نأكل مما لا نزرع ونلبس مما لا ننسج!

والمؤسف أن تخاذُلنا لم يقف عند هذا الحدّ، حتى أصبحنا اليوم، وفي عصر العولمة والقطب العالمي الواحد، مقلِّدين للمقلِّدين، فابتعدنا عن الأصل "درجتين" حسب تعبير الفيلسوف اليوناني أفلاطون[28] حين رحنا نقلّد الغرب الأوروبي ونتّبعه، في وقت صار الغرب فيه مقلِّداً للقطب الأميركي الواحد، وسائراً في ركابه.

ويبدو أن ما لم نفطن له، اليوم، فطنَ له منذ حوالي القرن، فيلسوفنا جبران الذي أنحى باللائمة على العرب الذين آلت بهم الحال إلى أن يصبحوا مقلِّدين للمقلِّدين... مشبِّهاً إياهم بالإسفنجة التي أصبحت هذه المرة، "لا تمتص من الماء إلا ما يتسرّب إليها من الإسفنجة الأخرى، وهذا منتهى الضعف والاتِّكال على الغير، بل منتهى الغباوة والعماية"[29].

أما على الصعيد الأدبي، فإننا نشير بداية، إلى أن النقّاد والدارسين لا يتفقون على تحديد زمني لبداية النهضة؛ ففي حين يرى فريق منهم أن تباشير النهضة الأدبية، تزامنت مع قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر، يرى فريق آخر أنها تأخرت إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فيما يرى فريق ثالث أن الأدب العربي لم ينهض من كبوته إلا مع بدايات القرن العشرين.

ويربط أصحاب الفريق الأول بين قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر، نهاية القرن الثامن عشر، وبين النهضة في الشرق العربي، محتجين لذلك، بأن الحملة لم تكن عسكرية

فحسب، بل كانت علمية أيضاً، حملت إلى الشرق بشكل عام، وإلى مصر بشكل خاص، بذور النهضة العلمية والاجتماعية والفكرية والأدبية.

إن مدافع بونابرت نبّهت، برأي هؤلاء، المصريين أولاً، والعرب تالياً، من نومهم العميق الذي استطال قروناً من الزمن، عُرفت "بعصور الانحطاط"، وأنها أذنت بانبثاق فجر جديد، وبقيام نهضة سياسية، فكرية وأدبية، بدأت بوادرها تطل مع أول ضربة مدفع فرنسي، حتى إن باحثاً كالدكتور لويس عوض، يجعل من تلك الحملة حدّاً فاصلاً بين عالمين مختلفين كل الاختلاف[30].

وهذا ما يراه الدكتور محمد حسنين هيكل الذي يقول خلال تقديمه لديوان الشوقيات: "كانت مصر إلى حين قدوم الحملة الفرنسوية إليها... بعيدة عن الاحتكاك بدول أوربا... فأما الأدب من شعر ونثر، فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة، منذ امتدَّ سلطان الأتراك على مصر، وأنك لتعجب حين تقرأ كاتباً كالجبرتي أو ابن إياس لضعف تأليفه ولغته ولسقم ما فيه من آثار الأدب..." [31]. ويُرجع الدكتور هيكل الفضل في "محو ظلمات الماضي"، إلى الإصلاحات التي قام بها محمد علي باشا، بُعيدَ الحملة الفرنسية، وإلى إيفاد البعوث العلمية إلى أوربا، وفي طليعتهم الشيخ رفاعة الطهطاوي وتلاميذه الذين "أحيوا عهد الأدب العربي، في مصر"[32].

وليس بعيداً عن ذلك، ما يراه باحثون معاصرون من أن ريح الغرب هي التي نبّهت العرب من "سباتهم"، وخلقت حركة إحياء وتجديد في لبنان وفي مصر التي كان الأدب فيها مختلطاً بعلوم الدين، وبعض تقاليد "عصور الانحطاط" التي تأصّلت حتى باتت تشبه العقائد، كما يقول جودت الركابي، إلى أن ظهر المنقذ في تلك الحقبة، وهو الإمام محمد عبده[33].

وقبل الانتقال إلى رأي الفريق الثاني، لا بدَّ لي من التعليق على تلك العبارات التي ردّدها باحث إثْرَ آخر، قصدتُ بها عبارات "النوم العميق" و"السبات العميق"، و"الأرض القاحلة" و"الأرض الموات" و"الظلام الدامس"... إلى ما هنالك من عبارات لم تتوخ الدقة العلمية، على ما يبدو، ولم يقرأ أصحابها آداب حقبة تزيد على أربعة قرون، لترى أدباء كباراً أمثال البوصيري وصفي الدين الحلّي وابن نباتة والقلقشندي وابن بطوطة وابن خلدون وسواهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم، من أصحاب الدواوين والمصنّفات، والمعاجم والموسوعات، وممن يقومون دليلاً على بطلان تلك التسميات المرتجلة، اللهمَّ إلا إذا كان الازدهار الأدبي لا يعني سوى الشعر الذي كان في معظمه مديحاً مسفوحاً على أعتاب الخلفاء والأمراء!

من جهة أخرى، فإنه لا يمكن لمن يدرك طبيعة الأدب ومسار الحركات الأدبية عبر التاريخ، أن يصدّق أنه يمكن لأدب، استطال قروناً قبل مجيء حملة بونابرت، أن يموت، وأن يقوم أدب جديد، بين ليلة وضحاها، لمجرّد أن تُقرع المدافع، وتطأ الأرضَ العربية أقدامُ الغزاة والمحتلين.

قد يكون ذلك التغيير السريع حصل فعلاً على الصعيد السياسي، إلا أن ما يصح في هذا المجال، قد لا يصح دائماً وأبداً في المجالات الأخرى، ولا سيما الفكرية والأدبية منها، مع عدم إنكار التأثير المتبادل بين الحياتين السياسية والأدبية، والتاريخ ينبئنا بأن التغيرات التي تصيب الحركات الأدبية، لا بدَّ لها، في كل عصر، من مقدِّمات وإرهاصات تمهِّد لولادتها، ومن عوامل وبواعث تساعد على تغيّرات تدريجية، وعلى إحداث تموّجات غير حادّة التعاريج.

وإذا كان البعض يرى أن مصر والشام قد أفادتا، في عهد محمد علي، من أسباب المدنية الغربية الحديثة في جميع الميادين، بما في ذلك الميدان الأدبي، وأن النهضة الفكرية الأدبية قد بدأت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فإن البعض الآخر لا يرى في تلك الحقبة، أي تغيير على الصعيد الأدبي، إن من حيث الشكل أو من حيث المضمون. وجلّ ما رأوه أن الحملة رحلت، وأقبل عهد محمد علي وأولاده، والأدب العربي في حال لا يُحسد عليها، وخصوصاً الشعر الذي يقول فيه شوقي ضيف: إنه كان يجري في النصف الأول من القرن التاسع عشر على الصورة السيئة التي كان يجري عليها أثناء العصر العثماني، وهي "صورة مسفّة في الأغراض والمعاني والأساليب"[34]. فالأغراض ضيّقة عديمة الجدوى، والمعاني سطحية مكرورة، والأساليب متكلّفة مصطنعة، ومثقلة بأغلال البيان والبديع.

صحيح أن الحياة، أيام محمد علي ومن بعده، شهدت تقدماً على صعدٍ عدة، إلا أن الأدب لم يشهد شيئاً من هذا، لأن ذلك يتطلّب وقتاً تختمر فيه بذور التغيير والتجديد، ولأن بواعث تحريره وتطويره كانت شبه معدومة؛ ذلك أن محمد علي أولى اهتمامه، كما هو معروف، للأمور العسكرية والسياسية والعلمية، دون أن يلتفت، كما ينبغي، للحياة الأدبية، حتى قيل فيه أنه "ظل تركياً في ثياب مصرية".

ويبدي شوقي ضيف استغرابه إعجاب المتلقين بهذه النماذج من الأدب والاستمتاع بها، وهذا، برأينا، أمر طبيعي وواقعي؛ ذلك أن الذوق الفني كان واحداً لدى المرسِل والمرسَل إليه، و"هذا الكعك من ذاك العجين"! مما جعل من أدباء تلك الحقبة نماذج مكرورة، لا يكاد يتميّز أحدهم عن الآخر، فناً وإبداعاً.

ومع ذلك، فإننا لا نميل إلى تعميم هذا الرأي، ليشمل الآداب جميعها، كما فعل أنيس المقدسي الذي ينعى على كتابات تلك الحقبة، ما آلت إليه من ضعف وركاكة وإسفاف، فيقول: "ولو راجعت المراسلات التي كانت تدور بين الحكام والأمراء في ذلك الحين، لوجدت شواهد لا تُحصى على ما بلغته من ركاكة وإسفاف... في معظم الأقطار العربية"[35]. وهو يؤيّد رأيه بشواهد من تلك الرسائل الديوانية، والكتابات الأدبية، وإنْ كانت تلك الشواهد، برأينا، لا تفي بالغرض، ولا تعكس ركاكة، ولا إسفافاً[36].

وما أورده المقدسي عن الكتابات النثرية، يسري على الشعر الذي لم يكن، برأيه، أحسن حالاً من النثر، حيث "الديباجة الشعرية التي عرفناها لأمراء الشعر العربي، أيام الأمويين والعباسيين... هي غير الديباجة التي كان ينسجها الشعراء... قبل منتصف القرن [التاسع عشر]، فهؤلاء قاموا في عصر فقدَ فيه الأدب رونقه وجلاله، فلم يكن لهم إلا تقليد السابقين... فجاء شعرهم باهتاً، لا ماء فيه، أو متكلفاً تنقصه الحياة"[37].

بَيدَ أن الآداب أخذت، على ما يبدو، تسير، وإن ببطء، نحو التطور، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أدرك الأدبَ شيءٌ من التجدُّد الذي بدأت أنواره ضئيلة، قصيرة المدى، لكنها كانت "بدءاً له ما بعده"[38] على حدِّ قول محمد حسنين هيكل. فلما كان عهد إسماعيل، شقَّ الأدب له طريقاً نحو التطور، على يد جيل من الروّاد، أمثال سامي البارودي وإسماعيل صبري وسواهما من الشعراء الذين "كان روح الشعر آخذاً بنفوسهم، متهيئاً ليفيض منها ما ينفخ في الأدب العربي روحاً وقوّة"[39].

وعليه فإن أصحاب هذا الفريق، يرون أن النهضة الأدبية لم تبزغ، في بلادنا، قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأن ذلك كان بسبب عودة الأدباء إلى النماذج القديمة، يحتذونها، وهي نماذج صادرة عن طبيعة أصحابها، دون تعمّل أو تكلّف.

ويرى هؤلاء في البارودي رائداً لتلك الحركة الأدبية النهضوية التي برزت ملامحها فيما بعد؛ ذلك أنه أسَّس، من خلال اتِّباع نهج الفحول من الأقدمين، لنهضة أدبية طالت جيلاً من الأدباء الذين راحوا يعبّرون عن هواجسهم وعن روح عصرهم، مع محافظتهم على أساليب الأسلاف وطرائقهم، فكان البارودي بذلك، صلة الوصل بين الماضي والحاضر، والممهِّد لكبار الشعراء من بعده، وفي طليعتهم أقطاب مدرسة النهضة، شوقي وحافظ ومطران، ومن حذا حذوَهم، وصولاً إلى جماعة "أبولو". يواكبهم، في حركة التجديد هذه، إصلاحيون كبار، أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وآخرين ممن خطوا خطوات نهضوية،

تركت بصماتها جليّة أمام الأجيال اللاحقة، وأبرزها، ربما: "جماعة الديوان"، ممثّلةً بالعقاد والمازني وشكري الذين أفادوا من الآداب الغربية، التي تركت أثراً واضحاً في آثارهم الأدبية وفي دراساتهم النقدية.

بيدَ أن هناك من لا يعترف لأدباء تلك المرحلة، بأدب نهضوي، تنطبق عليه سمات النهضة الحقة، مصنِّفاً إياهم في خانة الأدباء العباسيين الكبار أو الأمويين الكبار، ولكن ليس النهضويين الكبار. ولعلَّ أدونيس يأتي في طليعة أصحاب هذا الرأي، إذ يصف شوقي، مثلاً، بالشاعر العباسي الكبير أو الأموي الكبير، نافياً عنه صفة النهضة[40] ذلك أن أدونيس ومَنْ سار على دربه، يرون أن النهضة الأدبية لم تقُم قبل بداية القرن العشرين، مع أدباء المهاجر في الرابطة القلمية، والعصبة الأندلسية، والذين هم، برأي الكثيرين، أول مَنْ حمل لواء التغيير والتجديد، ساعدهم في هذا، اطّلاعهم عن كثب، على الآداب الغربية، وبُعدُهم عن بيئتهم التي سهّلت لهم التفلّت من الموروث، نخصّ منهم جبران خليل جبران الذي يرى فيه أدونيس "أول صيحة تجاسرت في وجه الماضي"، إن على صعيد اللغة التي باتت عنده لغة تفجّر وإبداع وانفصال عن لغة عصر النهضة، كما عن لغة الأسلاف الذين خاطبهم بقوله الشهير "لكم لغتكم ولي لغتي"، وإن على صعيد الشكل والمضمون، حتى كان، برأي أدونيس، "بدء الرؤيا وبداية الشعر الحديث"[41].

وإذا كان البارودي قد شكّل المدماك الأساس لحركة النهضة الأدبية وكان الجسر الذي يربط بين عصر وآخر، فإن جبران شكّل الشرارة الأولى لانطلاقة الحداثة الشعرية الفعلية، التي لا تعني بالضرورة الحداثة الزمنية؛ ذلك أنه قد يكون هناك أدباء معاصرون يعيشون بين ظهرانينا، لكنهم تبعيّون مقلّدون، وقد يكون هناك أدباء ينتمون إلى عصور خلت، ولكنهم مجدّدون ومبدعون؛ ولنا في ظاهرة الشعراء الصعاليك وفي خروج شعراء عباسيين، أمثال أبي نواس وأبي تمام والمتنبي وكذلك شعراء الموشحات ممن خرجوا عن السائد والمألوف، و"أتوا بشعر لا يشبه شعر الأوائل" كما يقول الآمدي[42]، خيرَ دليل على ما نقول. ذلك أن معيار الحداثة هو الجدّة والخلق والإبداع والاستقلالية والفرادة. وتبعاً لهذا المعيار، يأتي عدم الاعتراف بنهضة أدبية خلال ما عُرف "بعصر النهضة" لأن هذا العصر لم يقدّم جديدا، ولم يُفد في الخروج من دائرة "الانحطاط الأدبي"، بل على العكس، فإنه، كما يرى أدونيس، كان "استمراراً للانحطاط، كان عصر احتذاء وتقليد واصطناع، بحيث يبدو عصر الانحطاط بالنسبة إليه عصراً ذهبياً، فإن عصر النهضة كان أكثر إغراقاً في التبعية وفي التقليد"[43].

بيدَ أن النـهضة الـتي تعـني تجديـداً وتحـديثاً، تنـهل مـن الماضـي الأصـيل وتتـزوّد مـن لغـة الأسـلاف، لتخرج أدباً خلاّقاً يتجاوز السائد والمألوف، ويجاري روح العصـر الجديـد، ولا يهـمّ، بعـد ذلـك، اعتمـد هـذا الأدب الرمـز والتلميح أم المباشـرة والتصـريح. المهـم ألا يعـني التحـديث والتجديد انقلاباً على التراث، كما فهمه المتطفِّلون، ولا خروجاً على مـا بنـاه الأسـلاف، ولا تفلّتاً من الضوابط والأصول، ولا انحرافاً عن قواعد اللغة، ولا تحـولاً إلى كـل مـا هـو غـامض ومشـوّش وركيـك، بـدعوى أن هـذا الأدب الجديـد هـو "رؤيـا واستشـراف"، ولـيس التفاتـاً إلى الماضي ولا تطلُّعاً إلى الحاضر، وكـأن الماضـي خـارج عـن التـاريخ، أو كـأن الحاضـر منفصـل عـن هـذا الأدب، بـل لكـأن أجيـال الحاضـر لا تسـتحق اهتمـام الحـداثيين، وكـأن الأدب لم يوجد، في الأصل، ليخاطب الناس ويعبّر عن هموم الحياة!

هل نـهض العرب؟

بعد هذا الاستعراض السريع والموجز، لواقـع العـرب ووجـوه ثقـافتهم وآدابهـم، علـى مـدى قـرنين من الزمان، أو يزيد، نعيد طرح السؤال الذي افتتحنا به هذا البحث، هل نهض العرب...؟!

إننا نجيب الآن، وبكل ثقة واطمئنان، يشفعهما تحسّر وألم، لنقول: كيف يكـون العـرب قد نـهضوا وهم يزدادون تفككـاً وتشـرذُماً، يومـاً بعـد يـوم.. ويـزدادون خضـوعاً وتبعيّـة للقـوى الكـبرى، حينـاً بعد حين، ويقـدّمون التنـازل تلـوَ التنـازل عـن أرضـهم وسـيادتهم وعنفوانـهم...؟! وهـا هـي إسـرائيل تقضم أرضهم وتهـوِّد ديـارهم، وتهـدِّد وجـودهم، ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي...! وكأن عرب اليوم، ليسوا من ذرية عرب الأمـس الـذين اسـتغاثوا بالمعتصـم فأغـاثهم، وهـذا مـا جعل الشاعر "عمر أبو ريشة" يتوجه إلى حكّام هذه الأيام مؤنّباً:

ربَّ وامعتصـــــــماه انطلقــــــــت مــــلءَ أفــــواه الصـــبايا اليـــتَّمِ
لامســـت أسمـــاعكم لكنــــــــها لم تـــــلامس نخـــوة المعتصـــــم

كيف للعرب أن ينهضوا، وهـم لم يتقدّموا ولم يتطوّروا، إنمـا الـذي يتغيّر في كـل مـرة، هو ذلك المستعمر والمحتل، فتتغيّـر معـه الأفكـار والثقافـات واللغـات، أمـا الاسـتعمار فواحـد، وإن تعددت وجوهـه، فالهدف واحـد، وهـو اسـتغلالنا، ونـهب خيراتنـا، والـتحكم بمقـدراتنا، والتلاعب بمصائرنا، وإن اختلفت وجوه هذا المستعمر وجنسياته، وافتنّت حبائله ومؤامراته!

كيـف لهـم أن ينـهضوا! وهـم يتخلّـون عـن حضـارتهم وعـن قـيمهم وعـاداتهم وتقاليـدهم، منجذبين نحو حضارات أخرى، منبهرين بها ومستلَبين...؟! وأنّى لهم أن ينـهضوا! وهـم يحسـبون

أن ما يستخدمونه من أجهزة وآلات، ووسائل وتقنيات، مؤشر على رقيّهم وتقدّمهم، جاهلين أو متجاهلين أن ما يستخدمونه ليس من صنع أيديهم ولا من ثمار أدمغتهم...؟!

أنّى لهم أن ينهضوا! وقد استهانوا بلغتهم التي هي هويتهم وانتماؤهم، وحافظة إرثهم وتاريخهم... كيف يمكنهم أن يستخفّوا بلغة يشهد لها القاصي والداني بقدرتها على مواكبة كل علم وكل جديد، فها هو المستشرق «مستهل" يقول: ".. في لسان العرب من قوّة الحياة... وأداء المراد مما ينشأ في بلوغ الحضارة.. ونقل كتب الأعاجم ما يجعل لهذه اللغة المقام الرفيع بين لغات العالم، وهي إن شاء علماؤها تؤدي لهم كل ما يحتاج إليه العصر... بدون أن يمدّوا أيديهم إلى سائر اللغات الأجنبية"[44]، فما بالهم اليوم، يستعيضون عنها، متباهين، بلغات غربية يرطنون بكلماتها الإنكليزية حيناً، ويلثغون بحروفها الفرنسية أحياناً..؟ أليس في دنيا العرب مَنْ يستشرف الخطر أو من يعتبر...؟!

كيف لهم أن ينهضوا ولم يعد للكتاب مكان لدى ناشئتهم، ولم تعد القراءة لهم غذاءً للنفس والروح...؟! كيف لهم أن ينهضوا، وآدابهم باتت في معظمها تقليداً لآداب الغرب، ولمدارسه ونظرياته ومذاهبه، يزرعونها في أرض غير أرضها، ويغرسونها في نفوس متلقّين غير مهيّئين لمثلها، تحت تسميات يخدعون بها أنفسهم وقرّاءهم، من رمزية وبنيوية وسوريالية وتفكيكية وحداثوية... إلى ما هنالك من مذاهب ونظريات ليست من صلب ثقافتنا وآدابنا، ناسين أو متناسين أن لهم تراثاً حافلاً بكل أنواع الأدب وأشكاله.

لقد فقدوا الثقة بأنفسهم وبما يملكون، حتى نسبوا الفضل في كثير من فنونهم إلى الغرب، مجرِّدين تراثهم من كل فن وإبداع؛ فالمقالة حسب زعمهم، فن غربي، وكأن التراث العربي لم يشتمل على مقالات الجاحظ وأبي حيّان التوحيدي...! والقصة فن غربي، والرواية فن غربي أيضاً، يقول فيه عبد الرحمن منيف: "الرواية العربية بلا تراث".[45] وكأن العرب لم يعرفوا، عبر تاريخهم البعيد والقريب، سرداً قصصياً، كما عرفت كل شعوب الأرض...! حتى الأدب الوجداني الغنائي، فإن البعض ينسبه إلى الغرب، محتجاً لذلك، بُبعدنا عن الوجدانية الفنية التي لا تتمثل إلا بروائع الآداب الأوروبية، وببعض بواكير أدبنا الحديث[46] راداً ذلك إلى عدة عوامل، منها فقر التجربة والوجدان لدى أسلافنا من الأدباء. وإذا علمنا أن المعاناة إحساس فطري، فكيف يمكن أن يكون العرب، على مرّ العصور، بحلْوها ومرِّها، بوقائعها وحروبها وويلاتها، خِلواً من كل أشكال المعاناة التي لا بدَّ أن تُتَرجَم لديهم أدباً ينضح بالألم والوجدان؟

نحن لنا فنوننا وآدابنا، لا شكّ في ذلك ولا جدال، و"في منزلنا القديم كنوز وذخائر وطرائف لا عداد لها، ولكنها مشوَّشة... محجوبة بغشاء من الغبار..."[47] ومنها يجب أن ننطلق ونطوّر ونجدّد، منفتحين على آداب الأمم، آخذين منها ما يناسبنا ويتلاءم مع تفكيرنا، لا، أن نذوب في تلك الآداب ونتخلّى عن شخصيتنا، لأن من يسعى لجعل الأديب العربي أديباً غربياً، يكون، كما يقول الزهاوي، كمن "يجعل العندليب يصيح صياح الديكة"[48]؛ كما ينبغي ألاَّ نُدير ظهورنا لتراثنا، مستسهلين المستورد الجاهز أسوة بما نستسهله من لباسنا وطعامنا وشرابنا، حتى بتنا غرباء عن أرضنا وقيمنا ولغتنا، ومَنْ لا ماضي له، لا حاضر له، ولا مستقبل له!

أما إذا أردنا الاقتباس عن الغرب، فلا نقتبس من أدبه وفنه ونظامه الاجتماعي إلا ما يمكّن شخصيتنا من أن تنمو وتتطوّر؛ وإذا أردنا أن نفيد من الغربيين، فلنتتبَّع طريقتهم في الاستقصاء والتحقيق وأسلوبهم في النقد والجدل، لا سيما وأن هؤلاء قد أتقنوا فن الترتيب والتبويب، فإذا كان لا بد من الاقتباس، فلنقتبس هذا الفن، ولا شيء سواه.

وأجدني أختم بهذا القول لجبران خليل جبران: "..وإذا تتبَّعنا... حقيقة الذين اشتغلوا بالعلوم... وجدنا أن كل فرد منهم كان نتيجة... لعزم كامن في عقلية شعبه، ولم يكن قط، ظلاً مرتعشاً لعقلية في الشعب الآخر"[49]، فهلاَّ أحجمنا عن أن نكون ظلاً مرتعشاً للآخرين...؟!

هوامش البحث:

(1)Classicisme: Doctrine des partisans de la tradition classique dans la littérature et l'art. Ensemble des caractères propres aux grandes œuvres littéraires et artistiques de l'Antiquité et du XVII^{e} siècle. (le Robert)

(2) مجلة الهلال، 1923، ص 77.

(3) ابن منظور: لسان العرب، باب الضاد، فصل النون، ص 245- 246.

(4) مجلة الهلال، 1923، ص 65- 66.

(5) نفسه ص 131- 132

(6) نفسه ص 96

(7) نحن نتحفّظ على هذه التسمية، لأن عصوراً عرفت مفكرين كباراً، وعرفت مؤلفات ومعجمات ومصنفات وموسوعات، من أهم ما عرفه العرب في عصورهم، لا يجوز أن يطلق عليها صفة "الانحطاط".

(8) مجلة الهلال، ص 73.

(9) نفسه ص 85- 86.

(10) الفنون الأدبية وأعلامها، ص 9.

(11) نفسه، ص 10.

(12) انظر مجلة الهلال، ص 117- 118.

(13) انظر المجلة نفسها، ص 74.

(14) نفسها... ص 78.

(15)نفسها... ص 159.

(16) نفسها... ص 129،

(17) نفسها... ص 131.

(18) نفسها... ص 133.

(19) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(20) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية – 366/2- 367.

(21) مارون عبود: صقر لبنان ص 52.

(22) مجلة الهلال: ص 117.

(23) نفسها... ص 129.

(24) نفسها... ص 71.

(25) نفسها... ص 102.

(26) نفسها... ص 103.

(27) انظر جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، 374/2.

(28) يرى أفلاطون في نظرية "المحاكاة" أن الشعر تقليد لعالم الموجودات الذي هو بدوره تقليد لعالم المثل.

(29) مجلة الهلال... ص 105.

(30) لويس عوض: المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث، 7/2.

(31) أحمد شوقي: الشوقيات، المقدمة، ص 1.

(32) نفسه... ص ب.

(33) انظر: جودت الركابي: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص 320.

(34) شوقي ضيق: الأدب المعاصر في مصر، ص 38.

(35) أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها، ص 45.

(36) انظر المرجع نفسه ص 45- 47 حيث يورد الكاتب شواهد من رسالة بعث بها شريف مكة سنة 1213 إلى مدير الحدود العامة في مصر، وكتاباً أرسله أديب سوري إلى الشاعر بطرس كرامة.

(37) المرجع نفسه، ص 48.

(38) محمد حسين هيكل في مقدمة الشوقيات، ص ب.

(39) المرجع نفسه، المقدمة، الصفحة نفسها.

(40) أدونيس: مقدمة للشعر العربي، ص 78.

(41) نفسه، ص 83.

(42) الآمدي: الموازنة، 6/1.

(43) أدونيس: مقدمة للشعر العربي، ص 76.

(44) مجلة الهلال... ص 114- 115.

(45) روجر ألن: الرواية العربية، ص 14، عن مجلة المعرفة، شباط 1979، ص 193.

(46) ميشال عاصي: الفن والأدب، ص 152.

(47) مجلة الهلال: ص 106.

(48) نفسه... ص 126.

(49) نفسه... ص 99.

لائحة المصادر والمراجع:

1- الآمدي (أبو القاسم): الموازنة، جزءان، 1961، دار المعارف، مصر.

2- أدونيس (علي أحمد سعيد): مقدمة للشعر العربي، ط4، 1983، دار العودة، بيروت.

3- ألن (روجر): الرواية العربية، ترجمة حصة منيف، ط1، 1986، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

4- الركابي (جودت): الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق.

5- زيدان (جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية، مجلّدان، 1983، دار مكتبة الحياة، بيروت.

6- شوقي (أحمد): الشوقيات، تحقيق د. محمد صبري، ط2، 1979، دار المسيرة، بيروت.

7- ضيق (شوقي): دراسات في الشعر العربي المعاصر، ط5، دار المعارف، القاهرة.

8- عاصي (ميشال): الفن والأدب، ط3، 1980، مؤسسة نوفل، بيروت.

9- عبود (مارون): صقر لبنان، 1952.

10- المقدسي (أنيس): الفنون الأدبية وأعلامها، ط4، 1984، دار العلم للملايين، بيروت.

11- مجلة الهلال، سنة 1923.

12- ابن منظور: لسان العرب.

13- Nouveau petit Robert